

رحلة العودة إلى الله



هل لي من توبة؟

لابدّ لكلّ إنسان وخصوصاً الذي قضى شطراً من حياته بعيداً عن الله عزّ وجلّ وعن طاعته أن يطرح على نفسه بعض الأسئلة يوماً ما:

- أليس الموت يُصيب كلّ إنسان ويأتي بغتة في كثير من الحالات؟

- ماذا سيكون حالي عندما يضعونني في القبر؟

- هل أنا بما من من الحساب الشديد والعقاب يوم القيامة؟

- ماذا أعددت لحياة الخلود في دار الآخرة؟

وغيرها من الأسئلة التي ينبغي لكلّ إنسان أن يُراجع نفسه من خلالها متأمّلاً في كلّ ما مضى من حياته.

إذا حرّكت هذه الأسئلة فيه نيّة التوبة والعزم على الرجوع إلى الله عزّ وجلّ، قد يواجهه هذا السؤال الأساس:

هل لي من توبة؟ وهل الله يقبل توبتي فيما لو تُبّت توبة نصوحاً؟

والإجابة على هذا السؤال مهمّة جدّاً، لأنّ الشيطان قد يقف للإنسان عند هذا المفتق، ويوهمه أنّ المعاصي الكثيرة التي جنيتها لا فكاك منها، فيقطع عليه طريق الرجوع، ويجعله يغمس أكثر في الفساد

الذي هو فيه إلى أن يوافيه الموت، مع أنه كان يملك نيّة حقيقية للتراجع والتوبة. من هنا ينبغي أن تعلم أخي العزيز أن القرآن الكريم والحديث الشريف مليئان بالنصوص التي تُشير إلى أن عز وجل يعفو عن عباده ويتوب عليهم فيما إذا تابوا واستغفروا. ونحن سنُتحدثُ بمجموعة من هذه النصوص الشريفة فيما يلي:

يقول تعالى: (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَىٰ أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ) (الزمر/ 53). تأمل أخي العزيز في هذا الخطاب الإلهي الذي يفيض بالرحمة واللفظ والكرم، تأمل في قوله تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يَغْفِرُ الذُّنُوبَ جَمِيعًا) لتشرع ببداية جديدة، وتتوب إليه وتستغفره.

ويقول تعالى: (أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ هُوَ يَقْبَلُ التَّوْبَةَ عَنْ عِبَادِهِ وَيَأْخُذُ الصَّدَقَاتِ وَأَنَّ اللَّهَ هُوَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ) (التوبة/ 104).

عن أبي جعفر (ع) قال: "يا محمد بن مسلم ذنوب المؤمن إذا تاب منها مغفورة له فليعمل المؤمن لما يستأنف بعد التوبة والمغفرة، أما وإني إنَّها ليست إلا لأهل الإيمان، قلت: فإن عاد بعد التوبة والاستغفار من الذنوب وعاد في التوبة؟! فقال: يا محمد بن مسلم أترى العبد المؤمن يندم على ذنبه ويستغفر منه ويتوب ثم لا يقبل إلا توبته؟

قلت: فإنَّه فعل ذلك مراراً، يُذنب ثم يتوب ويستغفر (إ) .

فقال: كلاّ ما عاد المؤمن بالاستغفار والتوبة عاد إلا عليه بالمغفرة وإنَّ غفور رحيم، يقبل التوبة ويعفو عن السيئات، فإنَّك أن تقنط المؤمنين من رحمة (إ) .

لكن الحذر ثم الحذر ثم الحذر، فإنَّ تعالى وإن كان غفورا رحيمًا إلا أنَّه شديد العقاب، فليست التوبة لعبة بيد الإنسان، فرُبَّ ذنب قد يُسقطك في الهاوية بحيث لا توفّق للتوبة بعده! من هنا يقول الإمام الرضا (ع): "المستغفر من ذنب ويفعله كالمستهزئ بربه".

استنتاج:

- ينبغي لكل حريص على آخرته أن يُراجع حساباته، ويُصلح أموره قبل أن تأتي ساعة الموت بغتة.
- إنَّ باب التوبة مفتوح، والشيطان يُحاول إغلاقه أمام العبد فيجب التنبّه من وسوسته وتسويلاته.
- النصوص القرآنية والروائية تحتوي على مضامين تؤكد على أن عز وجل يغفر جميع ذنوب العبد؛ فيما لو ندم وتاب إلى ربه توبة نصوحاً.
- ولكن الحذر ثم الحذر من استسهال الوقوع في الذنوب، فرُبَّ ذنب قد يُسقطك في الهاوية، بحيث لا توفّق للتوبة بعده.

ما هي آثار التوبة في حياة الإنسان:

إنَّ آثار التوبة والاستغفار والإنابة إليه تعالى كثيرة، منها:

1- البركة في حياة الإنسان وزيادة الرزق وجلاء الهم: عن أبي عبد (ع): "مَن أكثر من

الاستغفار جعل الله له من كل هم فرجاً ، ومن كل ضيق مخرجاً ، ورزقه من حيث لا يحتسب". وفي رواية أخرى عنه (ع) يقول فيها: "إنَّ الذنب يحرم العبد الرزق".

2- رفعة المقام: فعن أبي عبد الله (ع): "إذا أكثر العبد من الاستغفار رُفِعَتْ صُحُفُهُ وَهِيَ تَتَلَأَلُ".

3- جلاء القلب: فعن أبي عبد الله (ع): "إنَّ للقلوب صداء كصداء النحاس فاجلوها بالاستغفار".

4- ممحاة الذنوب: فعن أمير المؤمنين (ع): "العجب ممَّن يقنط ومعه الممحة، قيل: وما الممحة؟ قال: الاستغفار؟"

5- المحبة الإلهية: يقول تعالى: (إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ وَيُحِبُّ الْمُؤْمِنِينَ). (البقرة / 222).

استنتاج:

- البركة والرزق وانجلاء الهم ورفعة المقام والمحبة الإلهية وغيرها، كلها آثار للتوبة النصوح.

كيف أتوب إليه تعالى؟

التوبة كما غيرها من الأعمال تحتاج إلى بعض المقدمات والشروط كي تتم وتُقبل، ومن أهم شروطها:

1- استشعار فُجُوح المعاصي.

2- الندم على اقترافها: يقول أمير المؤمنين (ع) "الندم على الخطيئة استغفار".

3- المسامحة من الناس: إذا كانت المعاصي متعلّقة بهم.

4- العزم على تركها وعدم العود إليها.

5- الابتغال إليه تعالى والدعاء بالمغفرة والتوبة: جاء في الدعاء الوارد عن أهل بيت العصمة (عليهم السلام): "اللَّهُمَّ إِنِّي أَسْأَلُكَ تَوْبَةً نَصُوحًا تَقْبِلُهَا مِنِّي تَبْقَى عَلَيَّ بَرَكَتُهَا وَتَغْفِرُ بِهَا مَا مَضَى مِن ذُنُوبِي، وَتَعْصِمُنِي بِهَا فِيمَا بَقِيَ مِنْ عَمْرِي يَا أَهْلَ التَّقْوَى وَأَهْلَ الْمَغْفِرَةِ! وَصَلَّى عَلَى مُحَمَّدٍ وَآلِ مُحَمَّدٍ إِنَّكَ حَمِيدٌ مُجِيدٌ".

6- أن لا تكون عند حضور الموت ودنو الأجل: يقول تعالى: (وَلَا يَسْتَسْرِئُونَ نَسْأَةً لِّلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ لَا يَرْجُونَ حَيَاتًا أَذًى إِذَا هُتِمَّتْ لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيُسْرَىٰ وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَوَكِّلُونَ). (النساء / 18).

استنتاج:

- من أهم شروط ومقدمات التوبة: استشعار فُجُوح الذنوب، والندم على اقترافها، والمسامحة من الناس، والعزم على تركها، والدعاء إلى الله ليغفرها له، وعدم تأخيرها إلى حين دنو الأجل. ▶

